د . ميشال عاصي

« اشياء لا تموت ... »

عوامل عدة تدفعني الى الكتابة عن مجموعة محمد عيتاني القصصية « أشياء لا تموت » الصادرة عن دار الفارابي في بيروت مع بداية العام الجاري ١٩٧٤ .

في اعتقادي أولا ان كاتب هذه المجموعة ليس مجهولا في وطنه ، لبنان ، ولا في البلاد العربية الاخرى . فهو في فئة الادباء التقدميين الذين ظهروا الى الساحة منذ أواسط الخمسينات كمترجم لابحاث نظرية عقائدية هامة في الفلسفة والنقد الجمالي والفكر بعامة ، ولكثير من الآثار الادبية الابداعية . وهو الى ذلك من كتاب المقالة السياسية، ومن نقاد الادب وذوي الرأي في الثقافة ، ومن كتاب القصة ، فضلا عن كونه صاحب قلم ملتزم ، ومناضلا في معركة الصراع من أجل التحرر السياسي والاجتماعي منذ حوالي ربع قرن حتى اليوم . ومع ذلك ، وبرغم النشاط المتعدد الوجوه الذي بذله هذا الكاتب على امتداد شبابه كله ، فان ما يقابله به النقد ، وأبحاث التاريخ الادبي الحديث ، يظل دون القيمة الحقيقية التي له ، ويبقى مقصرا عن ايفائه حقه على الحركة الادبية والثقافية ، وعلى حركة التحرر العربية منذ مطلع الخمسينات حتى الآن .

واذا كانت وسائل الاعلام موقوفة في معظمها على حملة الاقلام السلطوية في هذا البلد او ذاك ، او اذا كانت طريقة تعامل الاديب الملتزم ، كمحمد عيتاني مثلا ، مع محيطه وبيئته لا تجعله في مركز الضوء الاعلامي والبروز الاجتماعي فان على النقد الموضوعي مهمة اجتياز حواجز التعتيم المضروبة على آثاره عن عمد او عن غير عمد ، كما ان على الناقد المسؤول واجب اضاءة الواقع الادبي وابرز مختلف جوانبه لا سيما تلك التي تقع في الظل ، أو يخشى وقوعها فيه ، لتحامل مغرض ، او لتقصير جلّ اليوم ناقد مهما يكن عن تجنب الانزلاق في مهاويه .

وعلى كل حال فلست أزعم لنفسي القدرة النقدية والموضوعية التي تمكنني من اقامة ميزان العدل بين الكاتب وحقه من الشهرة كما ونوعا . ولكن لمحمد عيتاني على الادب العربي في لبنان وخارجه ، وعلى أرتال واسعة من المتأدبين والمستنيرين حقا أرجو في اخلاص كلي أن أوفيه بعضا منه ، كما آمل في الوقت عينه ان اسهم في فتح نافذة مضيئة على أدبه ، أو أرسم معالم طريق اليه ، الى واحة ظليلة في هجير هذا الزمن .

غير ان بعض الجمر الذي ما يزال تحت رماد الايام يتاجج في موقد الذكريات ، يبقى ، قبل الدوافع العقلية ، هو الحافز الاول الى كتابة هذا المقال .

قد لا يستطيع الباحث في هذه المجموعة القصصية ان يحدد لاسلوبها الفني ، ولتقنيتها الكتابية ، هوية قصصية واضحة تمام الوضوح . وقد يتعذر عليه بالتالي تصنيفها في مذهب او في منحى جمالي معين . غير ان بنائيتها ، على اختلاف صورها وأشكالها ، لا تخرج عن السياق القصصي العام سواء دفعه الكاتب في طريق اللوحة المشهدية لبيئة زمنية تتداخل فيها الخطوط الحية للناس والاشياء ، أو لهنيهات في الذروة من وجود الناس المأسوي والفردوسي في آن معا ، وسواء نسج الكاتب سياق قصصه في تركيبة روائية محكمة الصناعة فريدة الصوغ والتعبير .

كثيرون أحيانا سيجدون في بعض هذه الاقاصيص سهولة في البناء الفني وبساطة في هيكليته ، تبعدها عن مناخات الابداع في هذا النوع من الادب ، وتقربها جدا من أرضية الريبورتاج لا من حيث فقدان الرؤيا القصصية المتكاملة فحسب ، بل من حيث النسج الاسلوبي وجماليته الشكلية بصورة أخص . وهذا ما يجعل أقصوصة مثل « مذكرات قصصي » وغيرها مثلا ، أقرب الى الحديث الحي والمباشر منه الى بناء فني يتصف بمهارات ابداعية ناجمة عن غنى التركيب وتداخله وفرادته . على ان ما تخسره الظاهرة الفنية في أقاصيص محمد عيتاني من هذه الوجهة التبسيطية في هندسة البناء القصصي تعوضها عنه جملة من مبادرات زاخمة في ارسال النكتة اللاذعة حينا ، او المثل الشعبي المكتنز حينا آخر ، وتجاوز لحواجز اللغة وقوالبها المتحجرة في كل حين .

وقد يلاحظ القارىء شيئا من الافتعال المصطنع في سياق بعض الاقاصيص ، او بمعنى آخر قد تطالعه بعض الاقاصيص بسياق تتخلله مفاجآت غير متوقعة ، أو بسياق مضطرب البناء ، كما في قصة « الجياد الغاربة » مثلا ، أو في قصة « لحظة الضوء » ، كذلك قد لا يرتاح القارىء لتسميته بعض الاشخاص او الهيئات بأسمائها الحقيقية مما لا يظل لها مع تطور الاحداث وتغير الاوضاع والظروف ، المدلولات والمعاني التي يقرنها بها الكاتب ، فضلا عن كونها تطبع العمل الفني بطابع المباشرة والتسطح الذي لا مبرر له . ومع ذلك يظل يشيع في هذه الاقاصيص نبض الاسلوب الحي على تقطعه ، ويظل الكاتب قادرا على جذب قارئه وشده اليه باللغة المتوترة حينا وبالنكتة البارعة حينا آخر .

وأربما ذهب بعضنا الى حد القول بأن هذه المجموعة القصصية هي ، من حيث الاتجاه الفني للاسلوب وتقنيته ، مجموعة اتجاهات وحرفيات تتراوح بين التقنية الكلاسيكية للبناء الروائي ، وبين التقنيات الحديثة للقصة ، مرورا بمختلف السمات الرئيسية للاساليب القصصية المعروفة في الرومنطيقية والواقعية وغيرها .

والحقيقة ، في اعتقادي ، هي ان طريقة محمد عيتاني في الصوغ الاسلوبي للقصة لا تلتزم اتجاها فنيا واحدا ، وليست تقتصر على الصفات المميزة لهذا الاسلوب أو ذاك ، وانما تنطلق الى غاياتها برحابة كلية ودونما حرج في انتهاج شتى الدروب الفنية المأثورة لدى أعلام القصاصين بغير استثناء . فهو يتوسل سياق الحبكة الاصولية المتدرجة من مقدمة تعريفية الى عقدة تأزمية الى خاتمة تضع حدا لنهاية السياق ، كما يتوسل مقومات هذا الاسلوب من احياء الشخصيات بالوصف الداخلي والوصف الخارجي ، وتجسيد الحالات النفسية بالحركة والسلوك ، فضلا عن رسم ملامح البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يحيا الاشخاص وتجري الاحداث في اطارها وزمنها . كما انه يتوسل في الوقت نفسه عناصر القصص الحديث ومقوماته من عبث بمجرى الزمن أحيانا ، ومن حوار داخلي وما يلازمه من تداعي الذكريات ، وتداخل الاحداث والحالات ، ومن تغليب الزمن النفسي ومنطقه الداخلي ومناخه الخاص على منطق الزمن الخارجي وتعاقبه التدرجي المتماسك .

لكن هل هذا التداخل الذي نلاحظه عند العيتاني بين عناصر مختلف الاتجاهات والاساليب القصصية هو علامة اكتناز تعبيري واستقلال بنائي متميز ، أم انه لا يعدو ان يكون حصيلة تأثرات متنوعة تتعايش وتتداخل من غير أن تبلغ درجة التفاعل العميق والولادة النوعية الجديدة ؟

هذا السؤال الاساسي حول هوية الاسلوب القصصي عند العيتاني ليس من السهل الجواب عنه بصورة حاسمة . لان الكاتب نفسه يطالعنا أحيانا بما يوحي بالاستقلال والفرادة والتوحد ، كما يبدو لنا في أحيان كثيرة انه ما يزال رهين المؤثرات الاسلوبية المتنوعة ، ولم يستطع ان يبلغ فيها نقطة التحول التي يمكن القول معها باننا أمام حصيلة أسلوبية ذات خصائص ناصعة متميزة . ولعلي لا أعدو الصواب اذا قلت انني ، في هذه المسألة ، أميل الى الاعتقاد بأن أسلوب محمد العيتاني القصصي يتسع لمختلف العناصر الروائية ، واتجاهاتها اتساعا شبه كمي ، بحيث تبدو الصفة الغالبة لتقنيته القصصية وكأنها استعانة بالمواد الخام لتلك العناصر ، او كأنها معرض لبراعم منها متعددة الالوان ، لم تنصهر في بوتقة ذات نوعية خاصة ، ولم تتلاقح فيما بينها لتولد ابداعا أسلوبيا في اتجاه متكامل محدد .

وبالاجمال فان أقاصيص هذا الكاتب ، من الناحية الجمالية لاسلوب التعبير تتجاوز حدود التجارب الاولية ، لكنها في اعتقادي تظل دون اللحظة التي تسطع فيها المعاناة التعبيرية بالالق المتوهج لذروة الخلق .

انني اذ أسجل بتحفظ هذا الرأي حول الطبيعة الفنية لمجموعة محمد عيتاني القصصية « أشياء لا تموت » أنتقل الآن الى محاولة التقاط الابعاد المضمونية لهذه الاقاصيص ، انطلاقا من ان الظاهرة الفنية والقصصية لا بد مرتبطة بخلفيات من المفاهيم والمواقف تشكل جزءا لا يتجزأ من القيمة الجمالية للاثار الفنية والادبية ، وتؤلف هنا القاعدة الواقعية لرؤيا الاديب القصاص ونسيجه الفني في أسلوبية البناء والتعبير .

فماذا تقول أقاصيص محمد عيتاني في هذه المجموعة ، وما هو موقف صاحبها من واقع الناس والحياة ؟

هنا لا أغالي مطلقا اذا صرحت بأنني لم أجد نفسي متأثرا ومتجاوبا الى الحد الابعد مع كثير من الآثار الادبية والقصصية مثلما وجدتني في مناخات « أشياء لا تموت » . لقد منحتني أجواؤها ، والتوجهات الاساسية لاحداثها وشخصياتها ، احساسات عميقة بالحياة ، ومشاعر حارة وحميمة بالجوهر الاسمى للوجود الانساني ببساطته وعظمته في آن معا . حسبي دليلا على ذلك ما استشعرته أثناء مطالعتها من اندماج تام بوقائع كاملة في أحداثها ، ومن توحد بحالات نموذجية لاشخاصها ، بل حسبي من ذلك فقط هنيهات غير قليلة لم أملك فيها الا أن أنصهر في دمعة تترقرق عبر الجفون ، أو بسمة ابتهاج وامتلاء ، غالبا ما كانت تقفز الى العلانية ضحكة مرحة ، أو سخرية مجلجلة .

واذا ما حاولت الآن تجاوز هذا الاحساس الشعوري العام الى البحث عن قيم ومواقف تجسده في الابعاد المضمونية لاقاصيص هذا الكاتب ، ألفيناها تتمحور أصلا حول رؤيا انسانية واقعية الى الحياة والعالم .

وقبل الاشارة أساسا الى مقومات هذه الرؤيا أود هنا ، في صدد الواقعية ، أن أبدد التباسا طالما أحاط بمفهوم الواقعية فأفسد مقاييسها ، وضرب حول طبيعتها في الادب والفن ستارا من الضباب والتمويه .

في زعم العديد من القراء ، ومن النقاد أيضا ، ان الواقعية صفة في التعبير وفي الاسلوب الفني للكتابة ، تقوم على رسم الوقائع والمشاهد بصورة دقيقة جدا ، وبشكل لا يخفي من الظواهر ، موضوع المعالجة ، جانبا من الجوانب ، أو شاردة من الشوارد ، قبيحها وجميلها ، بحيث تغدو الكتابة المسماة واقعية أشبه شيء بالتسجيل التقريري لكل ما يقع في نطاق الموضوع الادبي وفي زاويته على اختلاف الانواع الادبية وفنونها ، لا سيما القصة والرواية .

والحق ان الواقعية ليست في الاصل اتجاها أسلوبيا أو مذهبا يتصل بجمالية الشكل ، بمقدار ما هي في الاساس اتجاه في المدلول الخلفي للاثر الادبي ، ومذهب في الموقف الفكري لابعاد المضمون ولنظرة الاديب الفنان الى الانسان والمجتمع والعالم ، أي للرسالة الضمنية التي يرغب الاديب القصاص ، أو الشاعر ، أو المسرحي ، في ان توحي بها الوسائل الفنية التي يتجسد فيها ابداعه وموقفه من حركة الواقع حوله .

وفي مناسبة صدور هذا الكتاب لطالما ردد كثيرون بأن محمد عيتاني قصاص واقعي ، وان أدبه القصصي يندرج في سياق الواقعية اللبنانية والعربية الخ ... وفي روعهم انه كذلك لان أسلوبه في الكتابة حريص على تصوير الواقع بصراحة وأمانة .

والصحيح عندي ان قصص محمد عيتاني واقعية لا لان أسلوبها ولغة ادائها تحرص على نقل الواقع بتفاصيله ، وابرازه بدقة او بأمانة ، بل لان رؤيا صاحبها الى الحياة في حركتها وتناقضاتها وصيرورتها وأشيائها هي رؤيا واقعية ، بمعنى انها تحتضن حركة الواقع وتناقضاته ، وتقف في النهاية منه الموقف الذي ينسجم مع صيرورة تلك الحركة ، ومع آفاق التقدم والتطور ، والقيم الانسانية الاصيلة ، التي تدفع في اتجاه تلك الصيرورة ، او التي تتكشف عنها مسيرة التاريخ ونتائج حركته وتطوره .

في هذا الضوء يمكن القول ايضا بأن واقعية محمد عيتاني ليست الواقعية التي تعكس صورة التناقض والصراع في الحياة بين خير وشر على مستوى الحالات النفسية للاشخاص وسلوكهم الفردي والاجتماعي فحسب ، بل انها الواقعية التي تتجاوز حدود ابراز صورة هذا التناقض وبؤسه ونعيمه ، عظمته وحقارته ، سكونه وحركته ، الى مواقع لا يقف فيها الكاتب موقف المكتفي برسم وجهي السلب والايجاب في صراع الاضداد والتناقضات ، وانما الواقعية التي تتخطى موقع النقد السكوني هذا الى التزام جانب الايجاب في هذا الصراع ، والتأكيد على غلبة الجانب المضيء منه بتأكيده على استمرار النمو والتطور ، انطلاقا من توجه الناس أخيرا ، عفويا واراديا ، في خط الضوء والنجاوز برغم ترسخ الظلم في الارض ، وبرغم جميع ما يكبل الناس من قيود وموانع لا أخلاقية ولا انسانية في العلاقات الاجتماعية وفي المناخات النفسية والايديولوجية السائدة .

ان واقعية محمد عيتاني من هذه الوجهة هي بصورة اجمالية في سياق الواقعية الاشتراكية التي تنطلق من ان الصراع هو في الاساس صراع طبقي ينعكس في سلوك الناس ووعيهم بأشكال شتى وصور مختلفة لكنها في النتيجة حصيلة سيكولوجية واجتماعية وايديولوجية للاستغلال الطبقي ، وهي الواقعية المنفتحة على تفاؤل تاريخي ، الواثقة بقدرة الانسان على تغيير واقعه وبناء عالمه ، عالم الخير والعدالة والحرية .

ان مناخات هذه الاقاصيص لا تسير جميعها بالضرورة في هذا التخطيط بشكل آلي متواتر . فبعضها يجسد صورة البؤس الفاجع بشكل مأسوي ، وبعضها يجسد المأساة بشكل ضاحك ساخر ، وبعضها الاخر يلتقط العناوين الكبرى لهذا الجانب الاخلاقي السائد او ذاك ، على انها جميعا في النهاية ترسم حركة الحياة وتناقضاتها وصيرورتها الواثقة المتفائلة نحو الحرية والقيم الانسانية السامية .

هذي باجمال كلي هي الابعاد الانسانية التي يوحي بها تسلسل الاحداث الروائية في اقاصيص « اشياء لا تموت » ، وتجسدها مواقف الشخصيات ، كما ترسمها ريشة الكاتب عبر حالات واوضاع ولقطات حياتية تبلور الصراع وتكثفه ، محاولة ان ترتفع به الى مرتبة النموذجية والتجريد ، انطلاقا من وقائع محسوسة معاشة ومن احاسيس وردود فعل خاصة تجاه هذا الوضع او ذاك ، ضمن المنطق الذاتي لعالم القصة والحادثة .

يبقى اخيرا السؤال عن مدى توفيق الكاتب في ايجاد المعادلة الصعبة بين البنائية الجمالية التي يفرضها العمل القصصي كأسلوب فني في الادب ، وبين الابعاد الانسانية التي يفرضها الاتجاه الواقعي لمعاناة الكاتب وموقفه الرؤيوي من الحياة . فالى اي مدى استطاع محمد عيتاني ان يحقق اندماج الرؤيا الواقعية بالرؤيا الجمالية ، اي الى اية حدود كانت الظاهرة الفنية اصلا هي الواجهة التي تخفي وراءها الموقف الفكري والنظري للكاتب وتجسده باستيعاب ، بحيث لا يبقى منه الا ما توحي به ايحاء ، ولا تصرح به تصريحا ، عناصر العمل القصصي من حادثة واشخاص ومشاهد ، وتشهير اليه في النهاية كمغزى من المغازي او كرسالة منسوجة نسجا قصصيا ظاهرا لمعان ومقاصد خلفية ونظرية مستترة ؟

يبدو لي ان جزءا كبيرا من هذه المعادلة الصعبة بين الرؤيتين القصصية المحسوسة ، والواقعية المتضمنة ، قد تأتى للكاتب ان يحققه على مستويات متفاوتة في الكم والكيف . الا ان ما لاحظه علي سعد وعصام محفوظ في هذا الصدد يظل في رأيي صحيحا من حيث ان ثمة في هذه الاقاصيص لوحات ولفتات ولقطات متناثرة لو تحقق لها الاندماج في بناء واحد متماسك من الرواية « لاكتسب كل منها حياة ومعاني وابعادا اعمق واغنى بكثير مما تحمله اليوم » .

ومع ذلك تبقى اقاصيص محمد عيتاني بعد كل حساب حبيبة الى القلب ، وتبقى مجموعته هذه احدى ركائز القصة الواقعية في ادبنا اللبناني والعربي المعاصر . فليقرأها من يستطيع الى ذلك سبيلا من هواة الاقاصيص ومحترفي الادب ، والباحثين عن المتعة الفنية وابعادها الانسانية في أدبنا الحديث ، فان فيها من المواقف والحالات والصور والمشاهد ما يغني الوجدان الجمالي المعاصر ويمده بينابيع ثرة من الحرارة والضوء . كما ان فيها من معالم الرؤيا الحركية الى الواقع ما يدفع الى مزيد من تجاوز الانسان لظروفه ومن تعزيز لقيم ذلك التجاوز ودوافعه .

بيروت

دار الطليعة تقدم سلسلة **من التراث الماركسي**

تهدف هذه السلسلة الى المساهمة في استكمال جهد التعريف بالتراث الماركسي ـ اللينيني ، وكذلك التراث العمالي والاشتراكي ـ الديموقراطي ، بما فيه تراث « الصف الثاني » من المفكرين الماركسيين والقادة العماليين الذي كان له دور كبير في اغناء نظرية الاشتراكية العلمية وتطويرها .

صدر منها :

١ ـ ماركس ـ انجلز **البيان الشيوعي (مع مدخل لقراءة البيان)**
٢ ـ فردريك انجلز **تعاليم الماركسية**
٣ ـ الكسندرا كولونتاي **تحرر المرأة العاملة**
٤ ـ لي ذوان **البيئية والثورة الفيتنامية**
٥ ـ جيمس كونولي **احاديث المصنع**
٦ ـ غريغوري زينوفييف **اطروحات حول المسألة القومية والثورة الصينية**
٧ ـ بليخانوف **محاضرات في فلسفة التاريخ**
٨ ـ ماركس ـ انجلز **في الحركة النقابية**
٩ ـ روستسلاف اوليانوفسكي **الفلاحون وحركة التحرر القومي**
١٠ ـ لينين **نقد المعارضة العمالية**
١١ ـ بوخارين ـ بريوبراجنسكي **الف باء الشيوعية**
١٢ ـ ليون تروتسكي **المسألة القومية**

قيد الطبع :

١ ـ **الماركسية والمسألة الفلاحية** ستالين
٢ ـ **الجمهورية العمالية** جيمس كونولي
٣ ـ **الثورة الصينية** ليون تروتسكي
٤ ـ **الطريق الروسي الى الاشتراكية** يوجين فارغا
٥ ـ **حول نظرية صراع الطبقات** جورج بليخانوف
٦ ـ **طريق السلطة** كارل كاوتسكي
٧ ـ **اشتراكية ام فوضوية** ستالين
٨ ـ **الشيوعية والشرق** لينين

دار الطليعة ـ ص. ب ١١١٨١٣ ـ بيروت